الرسالة الثانية

من المرية إلى قرطبة

أظنك يا أخي لا تزال على ذكر من أن الرسالة الأولى من هذه الرسائل كتبت ونحن على متن البحر ـ قبل أن نصل إلى مرافىء الاندلس، أما هذه الرسالة الثانية فقد وضعناها بعد أن حططنا رحالنا في قرطبة حضرة هذه البلاد «عاصمتها» وقد خصصت هذه الرسالة بوصف كل ما مر بنا من حين اقترابنا من ميناء المرية إلى أن وصلنا إلى قرطبة.

* * *

أما المرية فهي إحدى مدن الاندلس الكبيرة الواقعة في شرقيها، وهي على ساحل البحر الرومي «البحر الأبيض المتوسط» وهي مرسى للسفن القادمة إلى هذه البلاد ـ الاندلس ـ وفي مينائها يربض الجانب الأكبر من أسطول الاندلس الأعظم والجانب الآخر يرسى في بجاية ـ وهي واقعة بين جبلين، فعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة، وعلى الآخر ربضها، والسور محيط بها وبالربض، وفي غربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض، ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات، وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة واحجار أولية وكأنما غربلت أرضها من التراب، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الأنهار، وطول واديها أربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وأنهار مطردة وطيور مغردة، وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام، وبها لنسيج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول، وللثياب الجرجانية والاصفهانية كذلك ـ ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف، وقد علمت أنه لا يوجد في بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية، ولا

أعظم متاجر وذخائر، وبها من الحمامات والفنادق نحو الألف، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا، وفيها كثير من العلماء والأدباء والفلاسفة[١].

وجملة القول أن المرية هذه كما رأيت تزخر بالحياة زخراً، وتنطق بنشاط المسلمين وجدهم، وباقصى غايات عزهم لذلك ومجدهم.

فلو أن السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

* * *

ولما صافح مركبنا امواه المرية ـ وكان يسير بحذائنا مركب آخر علمنا أن فيه أبا على القالى اللغوى وافد العراق وسائر من قاموا معنا من الاسكندرية فى مركب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ـ آنسنا من جانب الميناء ـ ميناء المرية ـ اسطولا كبيراً قادما علينا حتى إذا صار منا أدْنى ذِى ظَلَم[٢] أخذ يحيينا مَن فيه بالرايات والاعلام ـ وكان فيه الأمير عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس الأكبر ـ إذ أمره مولاى الحكم ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده أن يتلقانا فى وفد من وجوه الاندلسيين ويجىء معنا إلى قرطبة، تكرمة عن الأمير لنا ولأبى على القالى ـ حفظه الله ـ فكان من رجال ذلك الوفد شاعر الاندلس يوسف بن هارون الرمادى وأبو بكر بن القوطية سيد علماء اللغة فى الاندلس وابن رفاعة الالبيرى أحد أدباء ألبيرة وفتى نشأ يتوقد ذكاء ويقطر أدبا وألمعية يسمى أبا بكر الزبيدى وكثير غير أولئك من علماء الاندلس وأعيانها وقوادها ـ وهذه عمرك الله آية محَسّة على شدة عناية الامير بالعلم واهله ـ ولا بدع فقد وقفنا من ذلك على الشىء الكثير الذى سما بهذا الأمير فى اعيننا، فمن ذلك فيما تحققناه أنه يبعث الحين بعد الحين فى شراء الكتب إلى الاقطار، رجالا من التجار، ويرسل إليهم الأموال لابتياعها حتى جلب منها إلى الاندلس ما لم يعهده فى ربوعها، وقد بعث

(١) أرجأنا ذكر من انجبته المرية وبحاية إلى الرسالة الرابعة.
(٢) قريبًا جدًا.

فى كتاب الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى، وارسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة من قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى فى شرحه لمختصر ابن الحكم، فهكذا هكذا تكون الملوك والأمراء، وبمثل هذا يتعش العلم والعلماء.

* * *

ولما ارسى مركبنا والمركب الذى يقل أبا على القالى على ميناء المرية قدم لنا ابن رماحس جميع رجال الوفد الاندلسى وعرفنا بهم ثم امتطينا المطايا الفارهة وذهبنا إلى دار ابن رماحس الكائنة فى قصبة هذه المدينة.

ولما استقر بنا النوى وألقينا عصا التسيار، وانتظم شملنا فى تلك الدار، أخذ الرمادى الشاعر ينشدنا أبياتا له فى إسماعيل بن عيذون القالى يمتدحه بها[1] علق بالذاكرة منها هذه الأبيات:

من حاكم بينى وبين عذولى
الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة اصون معذبى[2]
سَلِمَتْ من التعذيب والتنكيل
إن قلت فى بصرى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى
لكن جعلت له المسامع موضعًا
وحجبتها عن عذل كل عذول

(١) مدح الرمادى أبا على القالى حقيقة بهذه الأبيات.

(٢) من هفوات الشعراء المستظرفة ما روى أن المتنبى لما سمع هذا البيت قال: يصونه فى استه، وان الرمادى لما بلغه قول المتنبى:

كفى بجسمى نحولا أننى رجل
لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

قال ـ وأكرم الله سمع القارئ ـ اظنه ضرطة.

إلى أن يقول متخلصًا بعد أن وصف الروض:

روض تعـاهده السـحـاب كـأنه
مـتـعـاهد من عـهـد إسـمـاعـيل
قـسـه إلى الأعـراب تعلم أنه
أولى من الأعـراب بـالـتـفـضـيل
حـازت قـبـائلهم لغـات فـرقت
فـيـهم وحـاز لغـات كل قـبـيل
فـالشـرق خـال بعـده وكـأنمـا
نزل الـخـراب بـربعـه المـأهول
فكـأنه شـمـس بدت فـى غـربنا
وتغـيـبت عن شـرقـهم بأفـول
يـا سـيـدى هـذا ثـنائى لم أقـل
زوراً ولا عـرّضت بـالـتـنويـل
من كـان يـأمل نائـلا فـأنا امـرؤ
لم ارج غـيـر الـقـرب فـى تأمـيلى

وبعد ذلك أخذنا فى ضروب من الحديث افضت فى نهايتها إلى حادث كدر علينا صفاءنا، وذلك أن أبا علىّ أخذ ينثر على الحَفْل درر أدبه فكان من بين ما جاء فى حديثه أدب عبد الملك بن مروان وأنه قال يوما لجلسائه:

أى المناديل أشرف؟

فقال قائل مناديل مِصر كأنها غِرقِىءُ البيض[1] وقال آخر مناديل اليمن كأنها

(١) غرقى البيض القشرة الرقيقة التى تعلو البيضة دون قشرها الاعلى وقشرها الاعلى يقال له القيض.

نَور الربيع، فقال عبد الملك: ما صنعتما ـ شيئًا أفضل المناديل مناديل أخى بنى سعد عبدة بن الطيب إذ يقول:

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية
وفار للقوم باللحم المراجيل[١]
ورد واشقر[٢] ما ينئيه طابخه[٣]
ما غَيّر الغَلىُ منه فهو مأكول
ثمُتَ قمنا إلى جُرد مسوَّمة[٤]
اعرافهن لأيدينا مناديل

وانشد القالى الكلمة فى البيت ـ اعرافها لايدينا مناديل ـ فما كان من الأديب ابن رفاعة الألبيرى ـ وقد لاحظنا فى خلقه حرجا وزعَارة[٥] إلا أن استعاد أبا على البيت مثبتا مرتين، فى كلتيهما ينشد اعرافها، فقام ابن رفاعة وقال ـ مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه، والله لا تبعته خطوة، ثم هم بالانصراف، فندبه الأمير ابن رماحس أن لا يفعل فلم يجد فيه حيلة، فاضطر ابن رماحس إلى أن يكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى من ابن رفاعه ويشكوه، فجاء جواب الحكم إلى ابن رماحس بما نصه كما اطلعنى عليه ابن رماحس:

«الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطئ وافد العراق إلينا، وابن رفاعة أولى بالرضى عنه من السخط فدعه لشأنه واقدم بالرجل غير منتقص من تكريمه، فسوف يعليه الاختبار إن شاء الله أو يحطه»[٦].

(١) جمع مرجل وكان حقها المراجل ولكن لما كانت الكسرة لازبة اشبعها للضرورة.
(٢) أى ما تغير من اللحم قبل نضجه.
(٣) أى ما يؤخره لأنه لو آناه لانضجه لأن معنى اناه بلغ به اناه أى ادراكه والعرب لا تنضج اللحم لتعجيل القرى ومن ثم قال ما غير الغلى منه فهو مأكول.
(٤) أى معلمة. (٥) شراسة وسوء خلق.
(٦) هذه الحكاية واقعة تاريخية حدثت لابى على القالى عند دخوله الاندلس.

الاسطول الاندلسى
وروح العظمة التى ترفرف عليه

أسلفنا لك فى الرسالة الأولى من هذه الرسائل شيئا من القول قد يكونُ مغنيًا فى معنى الاسطول واثره الصالح فى الدولة التى تُعنَى به، وأن الدولة الفاطمية فى افريقية، والدولة الأموية فى الاندلس، لهذا السبب بعينه ولأن بلادهما واقعة على سيف البحر الرومى «البحر الأبيض المتوسط» وبحر الظلمات «المحيط الاطلنطى» قد بذَّتا سائر الدول فى العناية بالاساطيل حتى قبضتا بها على أعنة البحار، واستوتا[1] على ما فيه من جزائر واقطار، وآضتا بذلك وآضت رعاياهما سادة البر والبحر، بل ذل الزمان لهم ولانت اعطاف الدهر، وهذا هو الذى أرهج بين هاتين الدولتين بالفساد، وأرسل بينهما عقارب الاحقاد، وأثار بينهما نَقْع الحرب والجهاد، حتى لا تكاد الحروب بين الدولتين ينطفئ لهيبها، فتراهما للتافه من الأسباب يجردان الجيوش بعضهما على بعض، وتتلاقى اساطيلهما مصرحة بالشر، ولعلك لم تنس بعدُ حادثة هذا المركب الاندلسى الذى قمنا فيه من الاسكندرية، وأنه تحرش وهو ذاهب إلى المشرق بمركب للمعز لدين الله الفاطمى وأخذ ما فيه من بريد وبضائع، فما كان من المعز إلا أن أرسل اسطولا كبيراً إلى مربض الاسطول الاندلسى فى المرية كما أُخبرنا بذلك ونحن فى هذا البلد ـ فعاث فيه عيثًا، وألحق به وبالمرية ما ارضاه ونقع غلته وأطفأ لهيبه، فلم يسع أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر إلا الانتقام من المعز، فأمر بتجريد الاسطول وحشد المقاتلة والذهاب إلى أفريقية فذهب إليها تحت إمرة حاجبه الوزير أحمد بن عبد الملك ابن شُهَيد اسطول كبير يُقل عددا عظيما من رجالات الحرب، فعاج أولا على مدينة وهران وجمع من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب نحوا

(١) استولتا.

من خمسة وعشرين ألف فارس ثم هجم بالرجلان والفرسان على أفريقية ودارت بينه وبين رجال المعز رحى الحرب فهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة وكتامة، وكان يتألف منها السواد الأعظم من جيش الافارقة ـ واقتفوا آثارهم حتى بلغوا ضواحى تونس وهى غنية بتجارتها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود الأغنياء فحصروها برًا وبحرًا وألحوا فى الحصر فلما رأى أهلوها أن الخطر محدق بهم عرضوا أن يسلموهم المدينة وقدموا مبلغًا كبيرًا من المال إلى الحاجب ابن شهيد، وقدموا إليه كذلك أنسجة من كل نوع وطُرَفا من الحلى وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الارقاء، ثم غنم عدا ذلك سفن الميناء واثقالها وضمها إلى سفنه وكر راجعًا إلى الاندلس.

* * *

ومن سننهم التى مضوا عليها وجرت عادتهم بها أن يحتفلوا بالاسطول عند رجوعه ظافرا من حرب، فتقوم الاساطيل بألعاب وحركات بمرأى من عظماء الدولة ومسمع، كأنها فى حرب مع الأعداء، فاتفق فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى المرية أن آب الاسطول الاندلسى رافعا أعلام النصر فى هذه الواقعة، فأمر أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بأن تقوم الاساطيل بألعابها، فما كان منا إلا أن بادرنا إلى إمتاع أنفسنا بمشاهدة هذه الألاعيب صحبة الأمير، فذهبنا إلى الميناء ـ مينا، المرية ـ فوجدنا ثمت فى انتظارنا مركبا كبيرًا كأنه رَضْوى أو ثبير، أو الأمل الكبير، فدعينا إلى النزول فيه، ثم أخذ الأمير ابن رماحس فى أن يرينا ما فى هذا المركب من بروج وقلاع ومناظر وتوابيت ومن منجنيقات ومكاحل بارود ونفط ـ ومن نوتية، ومن مقاتلة وأسلحة وهلم مما قضينا منه عجبا ـ وهذا المركب نوع من الأنواع التى يتألف منها الاسطول يسمى «الشوانى» الواحد منه «شونه» وبعد ذلك أخذ هذا المركب يسير بنا الهوينا فى اختيال، مترجحا ذات اليمين وذات الشمال، كأنه عروس مجلوة يرفرف عليها روح الجمال والجلال، وبعد أن سار بنا فى

البحر شيئا وقف حيث نشاهد حركات الاسطول وألاعيبه، وكان الشاطىء ساعتئذ قد غُصّ بالنظارة من كل صنف من أصناف الناس، والزوارق قد انتشرت على متن البحر من جميع النواحى، وفيها ما لا يعلم عديدهم إلا الله من الاندلسيين والاندلسيات، كى يشاهدوا حركات الاسطول ـ فكان لذلك منظر تحسر دونه الظنون وتتراجع دون ادراكه الاوهام ـ منظر يبهر رُواؤهُ الفكر، ويُشيع الروعة فى الصدر، وينتقل بالإنسان من هذا العالم إلى عالم آخر كأنه الخلود.

مجال اسود وملهى سفين ... فيا طيب لهو ويا منظر

ويا حسن دنيا ويا عز ملك ... يسوسهما السائس الاكبر

ثم بصرنا بعد ذلك بالاساطيل على اختلاف ضروبها، وقد أخذت بصورة شيطانية فى ألاعيبها، فإذا رأيت ثمَّ رأيت كنائن[١] غير أنها تمرق مروق السهام، ورواكد[٢] هى مدائن، بيد أنها تمر مَرَّ السحاب غيرِ الجَهام[٣] واطياراً إلا أنها جوارح، لا تصيد إلا الارواح، وافراسا فى سرعة البرق اللامح، سوى أنها ذات دُسُر وألواح:

تتخاذل الالحاظُ فى ادراكها

ويحار فيها الناظر المتأمل

فكأنها فى اللطف فهم ثاقب

وكأنها فى الحسن حظ مقبل

* * *

فيا للجوارى المنشئات وحسنها

طوائر بين الماء والجوّ عومًا

(١) جمع كنانة جعبة السهام.

(٢) ثوابت.

(٣) السحاب الجهام هو الذى لا ماء فيه.

إذا نشـــرت فى الجـــو اجنحـــة لـهـــا
رأيت بـه روضـــا ونَورا مكمـــمـــا

* * *

ذاتُ هدب مـن المـجـــاذيف حـــاك
هُدبِ بـاك لدمـــعـــه إسّـــعـــادُ
حـــمم فـــوقـَـهـــاَ من البـيـض نارٌ
كُـلّ مَن أرسلت عـلـيـــه رَمـــاد

* * *

مـــلأ الكمـــاةُ ظهـــورَها وبـطونَهـــا
فـأتت كـمـا يأتـى السحـابُ المغـدق
عـجـبـا لهـا مـا خلت قـبل عـيـانـهـا
أن يحـمـَل الأُسْـدَ الضـــوارى زورق

* * *

زأرت زئيـــر الاسـد وهى صـــوامت
وزحـــفن زحف مـــواكـب فى زورق

* * *

ترمـى ببـــروج إن ظـهـــرت لعـــدو مـــخـــرقـــة بطـنا
وبنـفط أبـيض تحـــســـبـــه مـــاء وبه تـذكـى السكنا[1]

(١) البيتان من أبيات لابن حمد يس يمدح بها أبا يحيى الحسن بن على بن يحيى يقول فيها:

انشـــأت شـــوانى طـائـرة وبنيت على مـــاء مـــدنـا
ببـــروج قـــتـــال تحـــســـبـهـا فى شم شـــواهقـــهـــا قـننا

ترمى ببروج - البيتين -
وبعدهما

ضـــمن التـــوفـــيـق لهـــا ظفـــرا من هلك عـــداتك مـــا ضـــمـنا

وقوله مخرقة هكذا قرأناها بالخاء المعجمة ولعل الصواب محرقة بالحاء أى إن ظهرت هذه البروج لعدو فى حال احراقها قتل فى التو واللحظة لأن معنى بطنا اصيب فى بطنه يريد مقتله والسكن النار وتذكى تشعل.

وما زالت الاساطيل تلعب كأنها فى سُوح القتال، من لدن ذرَّ قرنُ الشمس إلى أن جاء وقت الزوال.

* * *

وهنا يجمل بنا أن نجمل لك القول على أنواع السفن التى يتألف منها الاسطول الاندلسى وعُددها وآلاتها[١] فمن تلك الاساطيل نوع يقال له «الشوانى» جمع الشونة أو الشينى كما مر بك آنفا ـ وهى أجفان حربية كبيرة تقام فيها الابراج والقلاع للدفاع والهجوم ـ وابراجها ذات طبقات مربعة ـ فالطبقة العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقسىّ والسهام ـ وفى الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو من مائة مجذاف، ويترواح ما تحمله الشونة من المقاتلة ما بين المائة والخمسين وبين المائتين ـ وتجهز الشوانى وقت الحرب بالسلاح والنفطية والازودة بَلَهَ الجنود البحرية، ومن أنواع الاسطول نوع يعرف «بالبوارج» جمع البارجة وهو أكبر من الشوانى ـ ومثله نوع يقال له المسطحات ـ ومن هذه الاساطيل نوع يقال له «الحراقات» جمع الحراقة وهى مراكب حربية كبيرة قرابة الشوانى بَيد أن هذه تنماز عن تلك بالمنجنيقات وتلك عن هذه بالقلاع، فتراهم يحملون فى الحراقة مكاحل البارود والعرادات والمنجنيقات[٢] يرمى بها النفط المتشعل على الاعداء ـ وهم يعملون الحراقة فى صورة الاسد وفى صورة الفيل

(١) راجعنا فيما راجعناه فى ذلك رسالة لصديقنا الفاضل عبد الفتاح افندى عباده.

(١) مكاحل البارود هى المدافع التى يرمى عنها بالنفط وحالها تتنوع فبعض يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر وبعض يرمى عنه بيندق من حديد زنة عشرة أرطال وزنة مائة والعرادات جمع عرادة وهى آلة تصغر عن المنجنيق ترمى بالحجارة أو السهام المرمى البعيد وبقدور النفط أو العقارب وما إليها، والمنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يوضع فيها الحجر يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر أو النفط منه فما يصيب شيئًا إلا عصف به عصفا.

وفى صورة العقاب وفى صورة الحية وفى صورة الفرس كتلك الحراقات التى كانت للامين بن رشيد، والتى يقول فيها الحسن بن هانئ:

سخر الله للامين مطايا
لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن براً
سار فى الماء راكبًا ليث غاب
أسداً باسطًا ذراعيه يعدو
اهرت الشدق كالح الانياب
لا يعانيه باللجام ولا السو
ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذ رأوه على صو
رة ليث يمر مر السحاب

إلى أن قال يصف هذه المطايا:

تستبق الطير فى السماء إذا ما
استعجلوها بجيئة وذهاب
ذات سور ومنسر وجناحين
تشق العباب بعد العباب

وكحراقة طاهر بن الحسين التى يقول فيها بعض الشعراء:

عجبت لحراقة ابن الحسين
ـ لا غرقت ـ كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد
وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها
وقد مسها كيف لا تورق

أما الطرائد[١] فهى السفن التى تحمل الخيل للاسطول، وأكثر ما يكون فيها اربعون فرسًا ـ والقوافير[٢] فهى السفن الكبيرة التى تحمل الزاد والكراع والمتاع ـ والفلائك والقوارب والشلنديات[٣] فهى من توابع الاسطول كالطرائد والقرافير.

أما عدد الاساطيل وآلاتها ومعداتها واسلحتها فهى الرماح والعصى والتراس والزرد والدرق والخوذ ،والمنجنيقات والعرادات.

وقد رأيت الاندلسيين يستعملون فى حروبهم البحرية النار اليونانية، وهى مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان فى شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها فى مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من المكان الملتوت بالنفط فيقع على السفن فيحرقها حرقًا، ومن غريب هذه النار أنها تشتعل فى الماء والهواء كالنفط ـ وقد رأيتهم كذلك يستظهرون بالبارود الذى يسمونه «الثلج الهندى» ونحن فلم نسمع بأمة من الامم اهتدت إلى هذا «الثلج الهندى» قبلهم[٤] ذلك إلى معدات أخرى لا أظنهم قد سبقوا إليها، ارانيها الأمير ابن رماحس فى الشونة التى كنا نشاهد منها حركات الاسطول، مثل التوابيت المعلقة فوق البروج، وهى صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها، يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة فى مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون

(١) جمع طريدة وقد اخذ الاسبانيون هذا الاسم فقال Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tartan.

(٢) جمع قرقور وهى المسماة اليوم كراكة أخذناها من الافرنج بعد ان اخذوها هم منا.

(٣) اخذها الروس فقالوا Schelaudo والطليان فقالوا Scialaudo والفرنسيون فقالوا Chaland.

(٤) قال كوندى المستشرق الاسبانى: إن المعروف أن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ وهم الذين نقلوه إلى الاندلس ومنها اخذه الافرنج ـ قال: وقد استعمله العرب فى محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هجرية وفى محاربة الاسبانيين سنة ١٢٤٩م واستخدمه صاحب غرناطة فى حصار باجة ثم نقله عن العرب فى القرن الثالث عشر روجر باكون الانكليزى وغيره من الكيماويين وأول ما استخدمه الفرنج فى واقعة كريسى سنة ١٣٤٦ وأنها منحة عظيمة فتحها العرب للاوربيين.

العدو بها وهم مختبئون فى هذه الصناديق، ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة وهى مسحوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون به الاعداء فى مراكبهم فتعمى ابصارهم بغبارها وقد تلتهب فيهم التهابًا ـ وقد رأيتهم وهم يرمونهم أيضًا بقدور الحيات والعقارب وبقدور الصابون اللين كى يزلقوا أقدامهم ـ ومن حيلهم التى يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم أنهم يحيطون المراكب بالجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء أو الشب والنطرون كى لا يفعل النفط فيها فعله ـ ومن حيلهم أنهم يجعلون فى مقدم المركب هناة كالفأس يسمونها اللجام، وهى حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من أسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم المركب يقال لها «الاسطام» فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز فى مقدم المركب فيطعنون مركب العدو به فلا يلبث حتى ينخرق فينصب فيه الماء فيغرق ـ ومن تلك الحيل أنهم إذا جن الليل لا يشعلون فى مراكبهم نارًا ولا يتركون فيها ديكًا وقد يسدلون على المراكب قلوعًا زرقاء، فلا يرى العدو مراكبهم التى يشبه لونها لون الماء أو السماء: فسبحان الملهم من يشاء ما يشاء، ويخلق ما لا تعلمون لا إله غيره.

* * *

أما رئاسة الاساطيل فقد جعلوا على كل اسطول قائدًا ورئيسًا فالقائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتلته، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجاريف ومعرفة مسالك البحر وطرقه بواسطة الرهنامج[1] وبيت الابرة التى هى من مبتكراتهم ولم يسبقهم إليها سابق فيما علمنا، أما النظر فى الاساطيل كلها فيرجع إلى أمير واحد من أعلى طبقات المملكة يلقبونه أمير البحر أو أمير الماء.

* * *

(١) الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذى يسلك به الربانية البحر ويهتدون به فى معرفة المراسى وغيرها.

وبعد أن أقمنا فى المرية ثلاثة أيام بلياليها تحملنا منها فى ركب فخم نبيل موف على الغاية، فى الابهة والروعة والجلال، قاصدين إلى قرطبة حضرة هذه البلاد، وكان فى طليعة الركب أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس، إذ أمره سيدى الحكم ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده كما اسلفنا أن يتلقانا فى وفد من وجوه الاندلسيين ويجيء معنا إلى قرطبة مبالغة من الأمير حفظه الله، فى الاحتفاء بنا وبأبى على القالى البغدادى وبأبى عبد الله الصقلى الفيلسوف الذى وصل إلى المرية قبل انفصالنا عنها، وكان فى الركب من الاندلسيين الرمادى الشاعر وأبو بكر بن القوطية وأبو بكر الزبيدى وكثير من أدباء الاندلس واعيانها.

* * *

وقد بهرنا وسحر اعيننا وملك علينا البابنا ما رأيناه فى طريقنا من استبحار العمران فى هذا القطر الاندلسى، فقد كنا نمر فى اليوم الواحد بثلاث مدن واربع، وفى حيثما سرنا نرى الحوانيت ـ فى الاودية ورءُوس الجبال ـ لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وما إلى ذلك من ضروب الاطعمة، وكنا نتعثر تعثراً بالجداول والانهار، تحفها البساتين وصنوف الزرع والنجوع والاشجار، حتى لظننا أنه ليس فى هذه البلاد صحراء مقفرة، أو أرض غامرة.

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم
ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

أما القرى والمعاقل والحصون فإنها لا تحصى كثرة، وقراها جميلة لتأنق أهلها فى اوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العين عنها:

لاحت قـــراها بين خـــضـــرة أيكـهـــا
كـــــالـدر بيـن زبرجـــــد مـكنـون

وأكثر مـدنها مسور من أجل الاستـعداد للعدوّ، وفى مدنهـا لذلك ما يبقى فى محاربة العدو ما يربى على عشرين سنة، لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب.

* * *

وكنا فى طريقنا نـتذاكـر الأدب ونتناشـد الاشـعار ونخـوض فى ضـروب من الحديث لا علينـا إذا نحن أوردنا شيئًـا منها فى هذه الرسالة، فـمن ذلك أن أبا على قال من كـلمة له «لمـا مررت بالقـيروان ـ وأنا اعـتبر من أمـر به من أهل الامـصار فأجـدهم درجات فى العبـارات وقلة الفلهم بحسب تفـاوتهم فى مواضعـهم منها بالقـرب والبعـد كأن منازلهم من العلم مـحاصـة ومقـايسة، فـقلت: إن نقص أهل الاندلس عن مقادير ما رأيت فى افهامهم بقدر نقـصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى ترجمـان فى هذه الأوطان، ولكن لما جئت إلى هنا قـضيت عجبا من أهل هذا الافق الاندلسى فى ذكـائهم[١]» ومن ثـم كنـا نراه[٢] يتـغطى عن الاندلسيـين عند المبـاحثـة والمناظرة ويقـول لهم «إن علمى علم رواية» وليس علم دراية، فـخذوا عنى مـا نـقلت فلم آل لكم أن صـحـحت[٣]» ثـم فـرط مـنه قـول ذهب فـيـه إلى تفضـيل شعـراء المشرق عـلى شـعراء المـغـرب، فانتدب لـه أحـد الادباء ممن كانوا فى هذا الركب وقال: «إن أهل الاندلـس أشعر النـاس فيما كثَّره الله تعالى فى بلادهم وجعلهُ نصب أعينهم من الاشجـار والأنهار والطيور والكئوس، لا ينازعهم أحد فى هذا الـشان ـ أما إذا هب نسـيم، ودار كأس فى كف ظبى رخـيم، ورجّع بمّ

(١) هذه الكلمة هى لأبى على القالى بنصها.
(٢) أى القالى.
(٣) وهذه كذلك للقالى.

وزير[١] وصفق للماء خرير، أورقت العشية، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية، أو تبسم عن شعاع ثغر نهر، أو ترقرق بَطل جفن زهر أو خفق بارق، أو وصل طيف طارق، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهواه كالماء والراح، إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح، أو أزهرت دوحة السماء بزُهر كواكبها، أو قوضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها، فاولئك هم السابقون السابقون، الذين لا يجارون ولا يُلحقون، وليسوا بالمقصرين فى الوصف إذا تقعقعت السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين قضبان الرماح، وبنت الحرب من العجاج سماء، وأطلعت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء، وبالجملة فإنهم فى جميع الاوصاف والتخيلات ائمة، ومن وقف على اشعارهم فى هذا الشأن فضلهم فيه على أصناف الأمة» فقال أبو على[٢] نعم وفى الحق ما تقول بيد أن شعراء المشرق فضلا أن شعرهم اصفى ديباجة، وأكثر ماء وطلاوة، واسد مسلكا واوضح منهجا، واشكل فى مبناه بالشعر القديم حتى لا يكاد يشذ عنه قيد شعرة، وفضلا أنه فى الاعم الأغلب رصين متماسك جزل قوى غير مهلهل النسج تراهم مع ذلك ذهبوا به كل مذهب من القول، وافتنوا فى مناحيه أيما افتنان، وغاصوا على المعانى غوصا حتى بلغوا فى ذلك المبالغ، ووصلوا إلى الغاية التى لا وراءها، وإنى لا اظن أن لعلى بن العباس الرومى أو بشار بن برد أو أبى نواس اشباها ونظائر فى هذه البلاد، على أنى مع ذلك لست انكر على الاندلسيين ذكاءهم وتوقدهم، وإنهم ـ كما رأيت وكما وُصفوا إلى «عرب فى العزة والانفة وعلو الهمة وفصاحة الالسن واباء الضيم والسماحة بما فى أيديهم والنزاهة عن

(١) الزير هو اسفل اوتار العود والذى يليه مثنى والذى يليه مثلث والذى يليه بم.

(٢) كل ما وضع على لسان أبى على وأبى عبد الله الصقلى لا أصل تاريخى له وإنما هذا الموضوع برمته هو من وضعنا وقد زورناه تزويرا لم نسبق فيما نظن إليه ولعلنا قاربنا الحقيقة فى هذه المفاضلة بين شعر المشارقة وشعر الاندلسيين على أنا لم نر لاحد قبلنا كلامًا فى هذا المعنى وسنوفيه حقه فى الكلام على شعراء الاندلس فى الرسالة الرابعة من هذه الرسائل.

الخضوع والاستخذاء ـ هنديون فى فرط عنايتهم بالعلوم ورغبتهم فيها وضبطهم لها ـ بغداديون فى نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطافة اذهانهم ونفوذ خواطرهم ـ يونانيون فى استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بانواع الخضر وصنوف الزهر ـ صينيون فى اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ـ تركيون فى معاناة الحروب والحذق بالفروسية والبصر بالطعن والضرب».

كـبـرتُ حـول ديارهـم لمـا بدت
منهـا الشـموس وليس فـيـهـا المشـرق

* * *

ولو ابصـروا لـيلى اقـروا بحـسـنهـا
وقـالـوا بأنى فى الثناء مـقـصـر

وهنا انبعث أبو عبد الله الصقلى الفيلسوف وقال ما تلخيصه: الذى اراه أن شعراء كل قطر من الاقطار أو جيل من الاجيال لا بد من أن يتأثروا بالمحيط الذى يحيط بهم، وأن يصطبغ شعرهم بصبغة ما يرون ويحسون من حولهم، فالشاعر الجاهلى أو المتَبَدِى فى الجاهلية والاسلام الذى لا تقع عينه الا على صحراء مقفرة، او سماء ماطرة، أو وحش كاسر، أو غزال نافر، لم ير ريفا، ولم تغذه رقة الحضر ولم يشبع من طعام، قد خالط الغيلان، وانس بالجان، وأوى القفر واليرابيع والظباء، فإنه حرّى أن لا يقول إلا فى جنس ما هو بسبيله من وصف البيد والمهامه والظبى والظليم والناقة والجمل وما إلى ذلك، فى قول مونق مشرق واضح الطريقة لا تعمل فيه ولا كلفة، يوائم امزجتهم وطبائعهم، ويلائم المحيط الذى فيه عاشوا، والجو الذى فيه درجوا، والفطرة الأولى التى فطروا عليها، والسذاجة التى هى من خاص صفاتهم، وقد يكون لهم مع ذلك الحكمة البارعة، والكلمة الرائعة، والمثل

السائر، والموعظة الحسنة، مما يبهر اعرق المتحضرين ويصيب منهم اقصى غايات الاعجاب والاكبار، ولكنه الوحى والالهام الذى تُلهَمهُ الفطرة القوية النقية البريئة، ويؤتى الطبيعة الكريمة ما يؤتى سهوا رهوا، وليس هو بنتاج العقل المسموع ولا بثمار الملكات المكتسبة.

«وبعد» فاما المولدون وهم الذين تصح المفاضلة بينهم وبين شعراء المغرب لأنهم جميعا تحضروا وعاشوا فى رونق النعيم واعتركوا بالدنيا واعتركت بهم فالرأى عندى أن يقال إن الشعر لفظ ومعنى، فاما اللفظ فإن شعراء المشرق لأن أكثرهم جاور الأعراب وأهل البادية ولقنوا اللغة منهم والتصقوا بهم ونُشِّئوا فى احضانهم وغذوا بلَبانهم ترى لهم الالفاظ المتخيرة، والديباجة الكريمة، والطبع المتمكن والسبك الجيد وكل كلام له ماء ورونق، وترى شعرهم رصينا متسقا على استواء واحد لا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ولا يجمع ولا يشتط ولا يأتيه الضعف والهلهلة والاسترخاء من اية ناحية من نواحيه: وأما المعنى فإن فحولة شعراء المشرق الذين افتنوا فى المعانى افتنانا وغاصوا عليها وامعنوا حتى ظفروا بكل معنى عجيب يعمر الصدر ويذكى الروح ويشع فى دنى العقل فتنجاب له ظلمته وتنير نواحيه وتنفتح مغالقه مثل بشار بن برد وأبى نواس وابن الرومى وهذه الطبقة فهم إنما بلغوا هذه الدرجة لأنهم من الموالى أبناء تلك الأمم الحمراء الذين امترسوا بالحضارة قبل العرب امتراسا وعالجوها وعالجتهم وداوروا صنوفها من الصناعات والعلوم وما إليها وصرفوا فيها اعنة الفكر وقدحوا لها زناد الرأى وهلم حتى أنمى ذلك على كر الغداة ومرّ العشى عقولهم، وشحذ أذهانهم واذكى ارواحهم وأكسبهم ملكات عبقرية عجيبة، فورث ذلك منهم ابناؤهم وانحدر مع دمائهم وكان منهم هذا النبوغ الذى نرى آثاره فى السلام.

وما كاد أبو عبد الله يتم قولته تلك حتى صاح أبو بكر ابن القوطية وقال أشيخنا

(١) أى على مذهب الشعوبية والشعوبية ـ ويسمون أنفسهم أهل العدل والتسوية ـ يذهبون إلى أن الناس كلهم سواء وأن ليس شعب أفضل من شعب وأن لا فضل للعرب على غيرهم وإذا أبى العرب إلا الذهاب إلى أنهم أفضل من غيرهم ذهبوا هم كل مذهب فى الطعن على العرب وتنقصوهم وألصقوا بهم كل عاب ومنقصة ولعل هذا قد نشأ بادئ ذى بدء من احتقار العرب هذه الامم الحمراء من الاعاجم ومن إليهم إذ كان العرب هم السادة وذوى الملكة والسلطان وكانت هذه الامم عبيداً لهم وموالى أو مستظلين برايتهم مستعمرين لهم، ونحن نورد هنا نَبْذاً من مفاخرات الفريقين ومحاوراتهم وتطعانهم بعضهم على بعض لأنه معنى مستلذ فضلا أنه ليس يخلو من فائدة، فمن قول العرب أو المتعصبين للعرب على العجم ـ ويراد بالعجم كل ما ليس بعربى ـ فمن قولهم: لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان إلا استنقاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك إلى دار الايمان كما فى الاثر أن قوماً يقادون إلى حظوظهم بالسواجير «جمع ساجور وهو القلادة أو الخشبة التى توضع فى عنق الكلب» وكذلك جاء فى الاثر: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل، على أن تعرضنا للقتل فيهم، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورغبنا فى مكاتبتكم «المكاتبة أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه «يقسطه» عليه ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه «اقساطه» فى كل نجم كذا وكذا فهو حر فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذى هو فى الاصل مولاه» وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من الموالى يصلى به فقالوا له فى ذلك فقال إنما أردت أن اتواضع لله بالصلاة خلفه، وكان نافع هذا إذا مرت به جنازة قال من هذا فإذا قالوا قرشى قال واقوماه وإذا قالوا عربى قال وابلدتاه وإذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء، وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالاسماء والالقاب ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذى يحضر غريراً، وروى أن عامر بن عبد القيس فى نسكه وزهده وتقشفه وعبادته كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق فى تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه فأنكر ذلك فقال له حمران لا كثر الله فينا مثلك فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك فقيل له أيدعو عليك وتدعو له قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا، فاستوى ابن عامر جالساً وكان متكئاً فقال ما كنت اظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك فقال ليس كل ما ظننت أنى لا أعرفه لا أعرفه، ويروى أن أعرابياً من بنى العنبر دخل على سوار القاضى فقال إن أبى مات وتركنى وأخاً وخط خطين ثم قال وهجيناً ثم خط خطاً ناحية فكيف يقسم المال فقال له سوار ههنا وارث غيركم قال لا قال فالمال بينكم أثلاثا قال ما أحسبك فهمت عنى، إنه تركنى وأخى وهجيناً فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخى قال أجل فغضب الاعرابى.

ومن قول الشعوبية: اخبرونا إن قالت لكم العجم هل يعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة =

- فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالة والاكاسرة والقياصرة وهل ينبغى لاحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذى سخرت له الانس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا، أم هل كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذى ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها، وكيف ومنا ملوك الهند، وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإن منا الانبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هوداً وصالحًا وإسماعيل ومحمدا ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وإنما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم أو دعوا، ولم تزل للامم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها فى الادوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهى أبدع صنعة ولعب الشطرنج وهى أشرف لعبة ومثل فلسفة الروم وما إليها وما كان للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصيها ويقمع ظالمها وينهى سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ولا أثر فى فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك أن للروم اشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض وكذلك الخطابة فانها شىء فى جميع الامم ويكل الاجيال إليه أعظم الحاجة حتى إن الزنج ـ مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج ـ لتطيل الخطب وتفوق فى ذلك جميع العجم وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ وألفاظها أخطأ وأجهل ـ وقد علمنا أن اخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلامًا وأسهلهم مخرجًا وأحسنهم أداء وأشدهم فيه تحنكا أهل مرو، ومن أحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر فى اللغة فليقرأ كتاب كاروندو من احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة والمعانى الشريفة فلينظر إلى سير الملوك، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتبها فى المنطق التى قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند فى حكمها واسرارها وسيرها وعللها فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصناعة.

قال الجاحظ ينضح عن العرب: أما الهند فإن لهم معانى مدونة وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الأرض سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق، وكان صاحب المنطق نفسه بكئ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد خلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثانى علم = =

الأول، وزيادة الثالث فى علم الثانى، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم.

وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا اجالة فكرة، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين أن يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع، أو فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالا؛ وتنثال عليه الالفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أو جز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب، وإن شيئًا الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب، وعدد التراب، وهو الله الذى يحيط بما كان، والعالم بما سيكون.

ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز، ومن المنثور والاسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك لا فى اليسير والنبذ القليل، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدى الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبى عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير، وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد العرب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذى قلت هو الحق، وأبصر الشاعر عيانًا، فهذا فرق ما بيننا وبينهم.

فتفهم عنى فهمك الله ما أنا قائل فى هذا، واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنما، من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة؛ وتسعر تلك النيران المضطرمة، ولو عرفوا أخلاق كل ملة؛ وزى كل لغة، وعللهم فى اختلاف إشاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علة كل شىء من ذلك، ولم اختلقوه ولم تكلفوه، لأراحوا انفسهم، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم. اهـ ملخصا من العقد والبيان والتبين، ويظهر أن هؤلاء الشعوبية تجمعت اوائل الدولة العباسية وإن كانت جرثومتها اقدم من ذلك.

بالتقوى وأن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم واخلاقهم وشرف انفسهم وبعد هممهم، فمن كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من بنى هاشم فى ذؤابتها، ومن أُمية فى ارومتها، وقيس فى اشرف بطن منها، ومن ثم يقول الله جل شأنه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ويقول رسول الله فى خطبة الوداع: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ـ كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى فإنى مع هذا أقول ما قاله ابن المقفع ـ وقد سأل جماعة من أشراف العرب ـ أى الامم أعقل، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لعله أراد أصله من فارس ـ فقالوا: فارس، فقال ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيما من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الامر فما استنبطوا شيئا بعقولهم ولا ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم، قالوا: فالروم قال أصحاب صنعة، قالوا: فالصين قال أصحاب طرفة، قالوا الهند، قال أصحاب فلسفة، قالوا السودان، قال: شر خلق الله، قالوا الخزر، قال: بقر سائمة، قالوا فقل قال العرب، فضحكوا، فقال: «أما إنى ما اردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلن يفوتنى حظى من المعرفة إن العرب حكمت على غير مثال مَثَل لها، ولا آثار اثرت أصحاب إبل وغنم، وسكان شَعَر وأدَم، يجود احدهم بقوته ويتفضل بمجهوده، ويشارك فى ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما يشاء فيحسن، ويقبّح ما يشاء فيقبح، أدَّبتهم نفوسهم، ورفعتهم هممهم، واعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم اشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين﴾ فمن وضع حقهم خسر، ومن انكر فضلهم حُسر ودفع الحق باللسان، اكبت للجنان».

بيد أن العرب لم يكن لهم بادئ ذى بدء دراية بالحرف والصناعات، وبالعلوم وتعلمها الذى هو فى عداد الصناعات، وذلك لمكانهم من البداوة، ورسوخ اقدامهم فيها، ومن ثم كانت الشريعة الاسلامية ـ إذ كان القوم أكثرهم اميين ـ تتناقل فى صدورهم ـ وجرى الأمر على ذلك ازمان الصحابة والتابعين ـ فلما بعد النقل من دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية، وصارت العلوم الاسلامية ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع، وهو معلوم أن الصنائع من منتحل الحضر، والعرب ابعد الناس عنها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه ثم الفارسى من بعده ثم الزجّاج، وكلهم عجم فى انسابهم، وكذا حملة الحديث وعلماء اصول الفقه وعلماء الكلام والمفسرون، واكثر فقهاء الامصار مثل الحسن بن أبى الحسن ومحمد بن سيرين فقيهى البصرة وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار فقهاء مكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح فقهاء المدينة وربيعة الرأى وابن أبى الزناد فقهاء قباء وطاوس وابن منبه فقيهى اليمن وعطاء بن عبد الله فقيه خراسان ومكحول فقيه الشام والحكم بن عتيبة وعمار بن أبى سليمان فقيهى الكوفة وهلم، وبالجملة لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم وظهر بذلك مصداق قوله ﷺ لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من أهل فارس، وأما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فقد شغلتهم الرئاسة فى الدولة وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه، فإنهم أهل الدولة وحاميتها واولو سياستها مع ما

obeikandl.com

عنده، وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان وتجشم المكروه فيه مع خلوه من الفائدة، فقال للترجمان عرفها أن فيه أكبر فائدة، وذلك أن الغصن إذا أُبر قوى واشتد وغلظ، وما دام لا يفعل به ذلك فإنه يبقى رقيقًا ضعيفًا، فضحكت واستظرفته، ومن نوادره أنه أرسل مرة سفيراً إلى بلاد المجوس «اسوج ونروج» وقد قارب الخمسين، وقد خطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشد فسألته زوجة الملك يومًا عن سنه فقال مداعبًا لها عشرون، فقالت وما هذا الشيب فقال وما تنكرين من هذا، ألم ترى قط مهراً ينتج وهو أشهب، فأعجبت بقوله فقال فى ذلك ـ واسم الملكة تود:

كلفتَ يا قلبى هوى متعبا
غالبت منه الضيغم الاغلبا
أنى تعلقت مجوسية
وتأبى لشمس الحسن أن تغربا
اقصى بلاد الله فى حيث لا
يلفى إليه ذاهب مذهبا
ياتود يا ورد الشباب الذى
تطلع من ازرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذى لا ارى
احلى على قلبى ولا اعذبا
أن قلت يوما أن عينى رأت
مشبهه لم أعد أن اكذبا
قالت ارى فوديه قد نورا
دعابة توجب ان ادعبا
قلت لها ما باله انه

قد ينتج المهر كذا اشهبا
فاستضحكت عجبا بقولى لها
وإنما قلت لكى تعجبا

ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وامرته بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال:

بكرت تحسن لى سواد خضابى
فكأن ذاك اعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف
إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا
فيصير ما استترت به لذهاب
لا تنكرى وضح المشيب فإنما
هو زهرة الافهام والالباب
فلدىّ ما تهوين من زهر الصبا
وطلاوة الاخلاق والآداب

ومن شعر الغزال الهين اللين الذى يرتفع له حجاب السمع، ويوطأ له مهاد الطبع كما يقولون قوله:

قالت أحبك قلت كاذبة
غُرِّى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست اقبله
الشيخ ليس يحبه أحد

سـيـان قـولك ذا وقـولك
أن الريح نعـقـدها فـتنعـقـد
او ان تـقـولى النـار بـاردة
او ان تقـولى المـاء يتـقـد

وقوله:

لا ومـن اعـمل المطـايا إليـه
كل مـن يرتجى إليـه نصـيـبـا
مـا أرى هـهـنـا مـن النـاس إلا
ثعـلبًـا يـطلـب الدجـاج وذيـبـا
أو شـبـيـهًـا بالقـط ألقى بعـينيـ
ـه إلـى فـارة يـريـد الـوثـوبـا

وحدثنا أبو بكر بـن القوطية قـال كان عباس بـن ناصح الثقفى قـاضى الجزيرة الخضراء يغدو على قرطبة ويأخذ عنه ادباؤها فمرت بهم يومًا قصيدته التى اولها:

لعـمـرك مـا البلوى بـعـار ولا العـدم
إذ المـرء لـم يعـدم تقى الله والـكرم

حتى مر بهم قوله:

تجـاف عن الدنيـا فـمـا لمـعـجَّـز
ولا عـاجـز إلا الـذى خط بـالقـلم

وكان الغزال إذ ذاك فى الحلقة، وكـان حدثا نظامًا متأدبًا متوقد القـريحة فقال: أيها الشيخ وما الذى يصنع مفعل مع فاعل، فقال كيف تقول، فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا حازم، فقال له عباد والله يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها.